شيء من الفعل في العربية

سأعرض في هذا المبحث لشيء يتصل بالفعل العربي مما له فائدة خاصة وهي دخوله في الأساليب الخاصة . ومن ذلك المادة الفعلية التي تؤلف أسلوبي التعجب وأسلوب المدح والذم .

أقول إن قولهم : « ما أحسن زيداً » و « أحسنْ بزيد » أسلوب للتعجب ، فانه يتوصل بهذا الأسلوب الى التعجب من « حسن زيد » .

ولو درس النحويون هذه المسألة على أنها أسلوب من أساليب الكلام لكانوا في غنى عن الذهاب في متاهات بعيدة عن العلم اللغوي .

فسر النحويون « ما أحسن زيداً » بـ « شيء أحسن زيداً أي جعله حسناً ، وما أظن ان التعجب حاصل في هذه الجملة المفسرة ، فهي كما قالوا جملة خبرية في حين أن أسلوب التعجب لا يتأتى بهذا فهو « إنشاء » .

ولم يصلوا إلى هذا التفسير إلاّ ليحلوا المشكلة الإعرابية ، فإن « ما » عندهم نكرة تامة بمعنى شيء ، وهي مبتدأ . ولم أستطع أن أهتدي إلى هذه النكرة وإلى تمامها وإلى تأويلها بشيء ، ثم لم أستطع أن اهتدي إلى كونها مبتدأ . ألا ترى أن « ما » هذه لا صلة إسنادٍ لها بما بعدها من جملة التعجب إذ لا يكون الخبر وصفاً للمبتدأ كما زعموا .

وقد بدت حيرتهم في « ما » هذه ، فقال الأخفش : « إنها موصولة وتأويل الكلام « الذي أحسن زيداً شيء عظيم » ومعنى هذا أن الخبر محذوف . وما أظن أن أسلوب التعجب حاصل في هذه الجملة المفسرة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وذهب بعضهم إلى أنها استفهامية ، والجملة التي بعدها خبر عنها ، والتقدير « أي شيء أحسن زيداً ؟ » ، وما أظن أن أسلوب الاستفهام مفيد للتعجب ، وهذا لم يقله إلا نحوي أفقده ثقل الموضوع التمييز بين أسلوبين مختلفين كل الاختلاف .

وقد ذهب بعضهم إلى أنها نكرة موصوفة ، والجملة التي بعدها صفة لها ، والخبر محذوف ، والتقدير « شيء أحسن زيداً عظيم » . وهذا قول ضعيف غاية الضعف .

ومن هذا العرض يتبين أنهم لم يحاولوا درس هذا الأسلوب الذي يعبر به عن التعجب ، فقد شغلوا أنفسهم بالإعراب . وكان أصلح للعربية والنحو العربي أن يقولوا في هذا التركيب « إنه أسلوب للتعجب مؤلف من « ما » التعجبية متلوة بـ « فعل » على « أفعَلَ » ، أو « أشـــد ونحوها » متلوة بالمصدر في أحوال أخرى عرض لها النحاة واشترطوا لها شروطاً خاصة .

وإن هذا « الفعل » من الأفعال الخاصة غير المتصرفة التي بنيت على هيئة مخصوصة فأفادت التعجب .

ومثل هذا نقول في « أحبب بزيد » فهو أسلوب للتعجب مؤلف من فعل التعجب الذي جمد على هذه الصورة ليؤدي هذا الغرض متلواً بالبـاء ثم مدخولها ، وبذلك ليتم هذا الأسلوب المشار إليه .

قلت : إن النحاه كانوا في حيرة في كل جزء من أجزاء هذا الأسلوب ، فقد اختلفوا في فعلية هذه المادة أو اسميتها ولا نريد أن نعرض لأقوال كل من الفريقين ، أما الذي نريد أن نقرره فإن « أفعَلَ » و « أفْعِلْ » من المواد الفعلية التي بنيت على هذه الصورة المخصوصة فجمدت وابتعدت عن قبول علامات الأفعال ، وذلك لانصرافها عن عناصر الفعلية وهي الدلالة على الحدث وترشحها لزمان ما ، وبذلك تؤدي أسلوب التعجب .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وكنا قد رأينا مثل هذه الأفعال التي تحجرت في صورة ما، لتؤدي معنى خاصاً وهي : عسى وحرى واخلولق وكاد وكرب وغيرها .

ولا بد أن نختم هذا المبحث فنشير إلى قلق النحويين وعدم تثبتهم فيما ذهبوا إليه فقالوا : « ما أجمله و « أجمِلْ به » ، والهاء عندهم مفعول به في الجملة الأولى ، وفاعل في الجملة الثانية والباء حرف جر زائد .

ولا ندري ما الفرق بين الجملتين بحيث أدى ذلك إلى الاختلاف في اعتبار المتعجب منه من الناحية النحوية . وهذا من غرائب أقوالهم التي لا يمكن الاطمئنان إليها .

ومن هذه الأساليب أسلوب المدح والذم ويعبر عنه بمادة « نعم » للمدح و « بئس » للذم و « حبذا » للمدح و « لا حبذا » للذم . وهذه المواد من الأفعال التي تفرغت من الدلالة الفعلية وهي الحدث المقترن بالزمان ، للدلالة على المدح أو الذم في أسلوب خاص كما في « نعم الولد زيد » و « بئس المرأة هند أو بئست » .

وقد كان النحويون الأقدمون في حيرة من هذه بسبب إعراب هذه المواد في الجمل التي تقع فيها ، فقد اختلفوا فيها فذهب جمهور النحويين إلى أن « نعم » و « بئس » فعلان بدلالة دخول تاء التأنيث الساكنة عليها . وذهب جماعة من الكوفيين ـ ومنهم الفراء ـ إلى أنها اسمان واستدلوا بدخول حرف الجر عليها نحو قولهم : « والله ما هي بنعم الولد » . ورد قول الكوفيين بالتخريج النحوي المثبت في كتب النحو .

ولم يهتم النحاة باستعمال هذين الفعلين وورودهما في النصوص الفصيحة ، وذلك لاهتمامهم بمسألة الفاعل والمرفوع الذي يليه . والفاعل في هذه الجملة إما أن يكون محلىً بالألف واللام ، وإما أن يكون شيئاً آخر .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقد قالوا في هذه الألف واللام : إنها للجنس حقيقة أو مجـــازاً ، وقالوا : إنها للعهد كما في قوله تعالى : « نعم المولى ونعم النصير » . ويكون الفاعل مضافاً إلى ما فيه « أل » كقوله تعالى : « ولنعم دار المتقين » .

ويكون مضمراً مفسراً بنكرة بعده منصوبة على التمييز نحو : « نعم قوماً معشره » ففي « نعم » ضمير مستتر يفسره « قوماً » و « معشر » مبتدأ وزعم بعضهم أن « معشره » مرفوع بـ « نعم » وهو الفاعل ولا ضمير فيها ، وقال بعض هؤلاء : إن « قوماً » حال ، وقال اخر : إنه تمييز .

وهذا الاختلاف في إعراب « قوماً » و « معشره » دليل على أن هذه المسائل قلقة في مكانها ، بل قل : إنهم لم يهتدوا إليها اهتداءً كافياً ، فهي إما أن تكون كذا وإما أن تكون أشياء أخرى .

وقولهم : إن في « نعم » ضميراً مفسراً بالتمييز شيء ملفق مصطنع ، ذلك أن الضمير لا يستعمل إلا حيث كان مسبوقاً باسم ظاهر ، والطبيعي أن يذكر الظاهر ثم يعود عليه ضميره .

وإذا قالوا : « نعم الولد زيد » فإن « زيد » خبر مبتدؤه محذوف أو أنه خبر الجملة قبله مبتدأ والتقدير « زيد نعم الولد » . أو أنه مبتدأ خبره محذوف والتقدير : « زيد الممدوح » .

وهكذا انصبَّ اهتمام النحويين على إعراب هذه الأجزاء التي وقعت في هذه الجمل التي عبر بها عن أسلوب المدح والذم .

قلت : لم يهتم النحاة بورود هذين الفعلين في النصوص الفصيحة وأكثروا من الاعتماد على الأمثلة التي اصطنعوها هم أنفسهم نحو : « نعم الرجل زيد » و « نعم غلام القوم زيد » و « بئس غلام القوم عمرو » .

ومثل هذه الأمثلة لم نعرفه في لغة التنزيل مثلاً ، وذلك أن « نعم » وردت في ست عشرة آية ، وفي جميع هذه الآيات ورد هذا الفعل مسنداً

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

إلى مرفوعه ولم يرد ما أسموه بالمخصوص بالمدح وهو « زيد » كما في قولهم ، « نعم الرجل زيد » .

والآيات التي وردت فيها « نعم » هي على النحو الآتي :

الآية	رقمها	السورة
ونعم أجر العاملين	١٣٦	آل عمران
وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل	١٧٣	آل عمران
وإن تولّوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير	٤٠	الأنفال
سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار	٢٤	الرعد
ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين	٣٠	النحل
نعم الثواب وحسنت مرتفقا	٣١	الكهف
واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير	٧٨	الحج
نعم أجر العاملين	٥٨	العنكبوت
ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون	٧٥	الصافات
ووهبنا لداودَ سليمانَ نعم العبد إنه أوّاب	٣٠	ص
إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أوّاب	٤٤	ص
فنعم أجر العاملين	٧٤	الزُّمَر
والأرضَ فرشناها فنعم الماهدون	٤٨	الذاريات
فقَدَرْنا فنعم القادرون	٢٣	المرسلات

وقد وردت « نِعِمّا » في آيتين هما :

إن تبدو الصدقات فنِعِمّا هي	٢٧١	البقرة
إن الله نِعِمّا يعظكم به	٥٨	النساء

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ومثل « نعم » جاءت « بئس » في لغة التنزيل العزيز » ، وليس فيها إلا آيتين على نحو ما استشهد به النحاة . ولنعرض للآيات التي جاءت فيها « بئس » وهي على النحو الآتي :

الآية	رقمها	السورة
ولبئس ما شرَوا به أنفسَهم	١٢٦	البقرة
فحسْبُه جهنم ولبئس المهاد	٢٠٦	البقرة
ستُغلَبون وتُحشَرون إلى جهنمَ وبئس المهاد	١٢	آل عمران
ومأواهم النارُ وبئس مثوى الظالمين	١٥١	آل عمران
ومأواه جهنم وبئس المصير	١٦٢	آل عمران
واشترَوا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون	١٨٧	آل عمران
ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد	١٩٧	آل عمران
لبئس ما كانوا يعملون	٦٢	المائدة
لبئس ما كانوا يصنعون	٦٣	المائدة
لبئس ما كانوا يفعلون	٧٩	المائدة
لبئس ما قدمت لهم أنفسهم	٨٠	المائدة
ومأواه جهنم وبئس المصير	٧٣	التوبة
فأوردهم النارَ وبئس الوردُ المورود	٩٨	هود
بئس الرِّفدُ المرفود	٩٩	هود
ومأواهم جهنم وبئس المهاد	١٨	الرعد
جهنم يصلَونها وبئس القرار	٢٩	ابراهيم
فلبئس مثوى المتكبرين	٢٩	النحل
بئس الشرابُ وساءتْ مُرتفَقا	٢٩	الكهف

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الآية	رقمها	السورة
بئس للظالمين بدلا	٥٠	الكهف
لبئس المولى ولبئس العشير	١٣	الحج
وبئس المصير	٧٢	الحج
ومأواهم النار ولبئس المصير	٥٧	النور
جهنم يصلونها وبئس المهاد	٥٦	ص
فبئس القرار	٦٠	ص
ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين	٧٢	الزمر
فبئس مثوى المتكبرين	٨٦	غافر
فبئس القرين	٣٨	الزخرف
بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان	١١	الحجرات
مأواكم النار هي مولاكم وبئس المصير	١٥	الحديد
حسبهم جهنم يصلونها وبئس المصير	٨	المجادلة
بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله	٥	الجمعة
أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير	١٠	التغابن
ومأواهم جهنم وبئس المصير	٩	التحريم
وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير	٦	الملك

وقد وردت « بئسما » في ثلاث آيات هي :

بئسما اشتروا به أنفسهم	٩٠	البقرة
قل بئسما يأمركم به إيمانكم	٩٣	البقرة
بئسما خلفتموني من بعدي	١٥٠	الأعراف

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ويتبين من عرضنا للآيات التي وردت فيها « نعم » وللآيات التي وردت فيها « بئس » أن النحاة لم يَشغَلوا أنفسَهم بشيء كثُر في لسان العرب ، بل اهتموا بمسائلَ لم ترد إلا قليلاً ، وأقاموا فيها المشكلات الصعبة فاختلفوا وذهبوا مذاهب شتى كما تبين لنا ذلك من أقوالهم . غير أنهم لم يهتموا بالكلام الفصيح الذي يُعَدُّ النموذجَ الصحيح للعربية في هذه الفترة التاريخية .

ونخلُص من ذلك ان « زيداً » المذموم ، و « عمراً » الممدوح لم يكونا في هذه اللغة القويمة على النحو الذي ورد في كتب النحو .

ثم جاء النحاة إلى « حبذا » و « لاحبذا » لإفادة المدح والذمّ فقالوا في المدح : « حبذا زيد » ، وفي الذم : « لاحبذا زيد » .

ومن ذلك قول الشاعر :

ألا حبذا أهل الملا غير أنه اذا ذكرت مَيّ فلا حبذا هيا

وشأنهم في « حبذا » و « لاحبذا » شأنهم في « نعم » و « بئس » فقد اختلفوا في إعرابها كما اختلفوا في « نعم » و « بئس » .

ذهب أبو علي الفارسي وابن برهان وابن خروف ـ وزعموا أنه مذهب سيبويه إلى أن « حَبَّ » فعل ماض و « ذا » فاعله ، وأما المخصوص فجوّز أن يكون مبتدأ والجملة قبله خبره ، وجوّز أن يكون خبراً لمبتدأ محذوف ، والتقدير « هو زيد » أي الممدوح أو المذموم زيد .

وذهب المبرّد ، وابن السراج في « الأصول » ، وابن هشام اللخمي ـ واختاره ابن عصفور ـ إلى ان « حبذا » اسم ، وهو مبتدأ ، والمخصوص خبره ، أو خبر مقدم والمخصوص مبتدأ مؤخر فركبت « حب » مع « ذا » وجعلتا اسماً واحداً .

وذهب قوم ـ منهم ابن درستويه ـ إلى أن « حبذا » فعل ماض و « زيد » فاعله فركبت « حب » مع « ذا » وجعلتا فعلاً .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ويبدو من هذا أنهم اختلفوا في حقيقة « حبذا » وفعليتها واسميتها ، وما ذلك إلا للفصل في كل جزء من أجزاء الجملة التي تقع فيها « حبذا » وإيقاعه في موقع إعرابي خاص . واختلافهم هذا في حقيقة هذه الأفراد التي تتكون منها جملة « حبذا » دليل على أنهم قلقون في اعتبار هذه الأساليب الفعلية الخاصة لإفادة غرض خاص هو المدح أو الذم .

أما القول في إسمية « حبذا » و « لا حبذا » فهو شيء مستبعد في جملة « حبذا » ، وذلك لأن هذا التركيب جاء لإفادة أسلوب المدح ، وإفادة المدح والذم تحصل في الجملة الفعلية ، وإن لفظ « حب » هو الفعلية ولكن الذي أبعدها عن الفعلية الصريحة تركيبها مع « ذا » ولا يعني هذا التركيب أنها انتقلت من فعل إلى اسم . غير أن من المناسب أن نقول : إن هذه الالفاظ أفعال خاصة تحولت من فعليتها الصريحة فتفرعت عن مادة الفعل من حيث الدلالة على الحدث المقترن بزمان ما للإعراب عن أسلوب خاص من أساليب الكلام ، وهو المدح والذم ، ولذلك فقدت التصرف فجمدت على حالتها المعروفة ، والقول بأنها فعل ماض غير سديد ، وذلك أن الأفعال قصد من تحولها إلى الجمود ، وتركيبها مع « ذا » إفادة للمدح أو الذم وإفادة هذا الأسلوب يعني أنه من جملة الأساليب الإنشائية ، ولا تستقيم هذه الأساليب مع الزمن الماضي .

أما القول بأن « ذا » فاعل فليس بسديد أيضاً ، وذلك أن تركيب « حب » مع « ذا » جعلها كلمة واحدة ، ولا يمكن أن تنصرف « حبذا » إلى جملة . ولعل ابن درستويه كان على حق في اعتباره « حبذا » كلمة واحدة . ثم ان « حبّ » لم يتضح لنا أنها أسندت إلى « ذا » فيؤدي هذا الإسناد إلى حصول فائدة ما .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وبسبب من هذا التركيب وصيرورة هذا المركب (وصيرورة هذا المركب) كلمة واحدة مال المعربون في عصرنا إلى اشتقاق فعل من هذا المركب هو « حبَّذ » بمعنى « استحسن » أو « فضّل » واستعملوا من ذلك الأبنية المختلفة كالمضارع والأمر واسم الفاعل واسم المفعول وسائر الصيغ الاخرى .

وبعد فإنّ هذه الألفاظ قد اتجهت في العربية اتجاهاً خاصاً للتعبير عن فن من فنون القول . ومن المفيد ألاّ تدخل هذه في اختلاف النحويين وجدلهم فتضيع في متاهات الفاعل وضمير الظاهر ، والمبتدأ وخبره المحذوف أو الخبر ومبتدئه المحذوف . وإن محاولتهم في إيجاد هذه المسميات في هذه الجمل التي أفادت التعجب والتي أفادت المدح أوالذم إضاعة للغرض الذي أطلقت من أجله .

ومن المفيد أيضاً ان نكتب نحونا الجديد على شيء من هذا الفهم ، فجنب الناشئين في عصرنا الذهاب في تلك الأوهام التي تبعد اللغة عن كونها حياة يحياها المعربون .

وعلى هذا فإن اللغة ليست وسيلة يعبَّر بها عن الفكر ، بل هي في حركاته وسكناته وهي الفكر مكتوباً أو منطوقاً به .

وأعود فأقول : إن دعوات أصحاب التيسير يجب أن تكون دعوات مفيدة فتيسر وتنبذ ما ليس من طبيعة اللغة ، وأن يكون النحو الجديد مادة تصف اللغة وصفاً بعيداً عن التعليل والتأويل ، وبذلك يتم لأصحابنا القائلين بالتيسير والداعين إليه بمقترحاتهم وآرائهم منهج علمي جديد .

وقد يقول ، إن النحو القديم في مصنفاته الضخمة يؤلف مادة من تراثنا فماذا نحن صانعون به إن أخذنا بآراء أهل التيسير التي تتنكر لكثير من العلم النحوي القديم ؟

ونجيب عن هذا السؤال فنقول : إن النحو القديم وهو من تراثنا الذي نجله ونقدره قدره ينبغي أن يظل في حلقة الدراسات التاريخية ندرسه ونفهمه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بأصوله وفلسفته وعلله وأحكامه ومناهجه التي اخذوا أنفسهم بها ، وأدى بهم ذلك الى اختلافات جوهرية وثانوية . والذي نعرفه أن العلوم كافة تخضع للتطور والتجديد ، فالفلسفة الحديثة غير الفلسفه في القرون الوسطى وغيرها في أيام الإغريق . والعلوم الطبيعية في عصرنا جديدة كل الجدة بحيث انسلخت عن أصولها القديمة وربما انقلبت النظريات ، فالذي كان مقبولاً في العلم منذ قرن من الزمان لم يعد مقبولاً في أيامنا . ومثل هـــذا حدث في العلوم الاجتماعية جميعها كما حدث تطور عظيم في المفاهيم الفنية في الرسم والنحت والموسيقى وغير ذلك .

ثم إن الدراسات النحوية في اللغات الأوربية الحديثة تذهب في هذا السبيل ، فهناك النحو الذي يتعلمه الدارسون ، وهو نحو جديد مبني على الاستقراء والوصف للنصوص الفصيحة الموروثة دون التنكر للغات الحديثة وما جد فيها من التطور في الأصوات ، وفي تركيب الجمل وسائر العناصر النحوية التي تغيرت عما كانت عليه في عصور سابقة . على أن لهذه اللغات نحواً قديماً يقبل عليه الدارسون المعنيون بالدراسات اللغوية التاريخية ليصلوا من ذلك إلى الجديد المتطور الذي يقوله الناس ويكتبونه .

ومن الخير للعربية وأبنائها أن نجري في هذا السبيل لنأخذ بالأسلوب العلمي الذي يقوم على التطور وهو سنة الحياة في مظاهرها المختلفة .

(بغداد) الدكتور ابراهيم السامرائي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net